متفائل ومتشائم

تأمل في الناس، ستجد فيهم صنفين؛ إنسان ساخط متشائم، قد ضيَّق أمره، وأشقى عمره، ينظر إلى الحياة من سَمِّ إبرة، وإنسان شاكر متفائل، قد أحسن الفكرة، ووسع النظرة، وشرح صدره.

يتزوج نبي الله إسماعيلُ عليه السلام مرتين، فيأتيه أبوه إبراهيم عليه السلام في مكة زائراً، فلا يجده، ويجد امرأته فيسألها عن عيشهم؟ فتقول: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ، وتشكو إليه! فلا يرضى إبراهيم شكواها، فيأمر إسماعيل أن يطلقها، فطلقها إسماعيل، وتزوج بأخرى، ثم لبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجد إسماعيل، ووجد امرأته، فسألها عن عيشهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فيأمر إبراهيم ابنه إسماعيل أن يمسكها[(١)].

الزوج واحد، والعيش واحد، لكن الأولى كانت نظرتها سلبية فضجرت وشكت، والأخيرة كانت نظرتها إيجابية فحمدت الله وأثنت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

فسل نفسك، ما نظرتك إلى الحياة، هل هي نظرة تفاؤل وإيجابية؟ أم نظرة تشاؤم وسلبية؟ وبناء على نظرتك يكون معيار سعادتك، وقد لخص الأمر ابن مسعود ﵁ فقال: «الله بقسطه وعلمه جعل الرَّوْح[١] والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهَمَّ والحزن في الشك والسخط»[٢].

وإن مما يُستجلب به التفاؤل، ويملأ القلب رضاً وسروراً هو أن يتفكر الإنسان في الموجود، ولا يتطلب المفقود.

ومن تأمل في قول النبي ﷺ: **«من أصبح منكم مُعافى في جسده، آمناً في سربه**[٣]**، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»**[٤]، وجد نفسه غارقاً في النعم إلى الأذقان، ويكفي أن تتأمل في قوله: **«قوت يومه»** ولم يقل: قوت شهره، ولا قوت عامه!

وبهذا النظر عاش الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ فقد جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ يشكو حاله، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله:

---

(١) **الرَّوح**: الاستراحة من غم القلب. ينظر: تهذيب اللغة (٥/ ١٣٩).

(٢) أخرجه هناد في الزهد (١/ ٣٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢٢).

(٣) قال المناوي في فيض القدير (٦/ ٦٨): «بكسر السين على الأشهر؛ أي: في نفسه، وروي بفتحها؛ أي: في مسلكه، وقيل: بفتحتين؛ أي: في بيته».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١) وحسنه الترمذي.

ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك[(١)].

إن هذا التأمل خليقٌ بأن يجعل المسلم متفائلاً في الحياة، معترفاً بعظمة نعم ربه، ذاكراً لها ـ مهما كانت أحواله وظروفه ـ.

أما الإنسان المتشائم فقد يملك كثيراً من مقومات المتعة والسعادة، لكنه لا يعيش السعادة، ولا يستمتع بما أوتي!

ما سبب مشكلته؟ ما علة شقاوته؟

تجدها في قول الرسول ﷺ: «**ليس الغنى بكثرة العَرَضِ**[(٢)]**، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْس**»[(٣)].

فقد يملك أموالاً طائلة، ودنيا وافرة؛ وصحة وعافية، ومع ذلك نفسه ليست راضية؛ بل دوماً ساخطة شاكية باكية، تريهِ الزهرة فيريك شوكَها، وتعرضُ عليه الماءَ فيريك فيه القذى، وتمدحُ له الشمس فيشكو حرارتَها، وتريه جمال البدر

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٩).
(٢) قال النووي في شرح مسلم (٧/ ١٤٠): «بفتح العين والراء، وهو متاع الدنيا، ومعنى الحديث: الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة؛ لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه، فليس له غنى».
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

فيريك سواد الليل؛ لا يرى إلا الجانب السيئ، ويعمى عن الجانب المشرق.

وهذا هو الإنسان الكنود الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦].

قال الحسن البصري: «هو الكفور الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه»[(١)].

وفي هؤلاء يقول ابن القيم: «ليس على العبد أضر من ملله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها؛ بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة؛ هذا وهي من أعظم نعم الله عليه؛ فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون..»[(٢)].

وصدق إيليا أبو ماضي في قوله:

والذي نفسه بغير جمال   لا يرى في الحياة شيئاً جميلاً[(٣)]

بل إن الإنسان المتفائل ينظر إلى البلايا كأنها عطايا، ويبصر المحن الشديدة على أنها منح حميدة، ويحول الخسائر العظيمة إلى أرباح كبيرة، ثقة بالله ربه، وإحساناً للظن به، ويقيناً بقول رسوله ﷺ: **«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كُلَّه خيرٌ،**

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٥٨٥).
(٢) الفوائد (ص١٨١).
(٣) ديوان إيليا أبو ماضي (ص٨١).

وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتهُ ضرَّاءُ، صبر فكان خيراً له»[(١)].

وهذا موطنٌ لا يهدى له إلا رجلٌ ذو حظٍّ عظيمٍ من توفيق الله ورعايته.

ابتلي التابعي الجليل عروة بن الزبير رضي الله عنه ببلاءين في وقت واحد، ضربت دابةٌ ابنه محمداً، فخرَّ ميتاً، وأصابت الآكلة قدمه فقطعت، فأتته قريش والأنصار يعزونه في ابنه ورجله، فكان يقول لهم: «ما أحسن ما صنع الله إلي، وهب لي سبعة بنين، فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحداً وترك ستةً، ووهب لي ست جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحداً، وأبقى لي خمسةً، يدين ورجلاً وسمعاً وبصراً» ثم قال: «اللَّهُمَّ، لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت»[(٢)].

والإنسان المتفائل ذو نظرة موضوعية في أحكامه على الناس، فيعاملهم معاملة واقعية، مقدراً الطبيعة البشرية التي يعتريها الجهل والخطأ والنسيان، فهو كثير الاعتذار لهم فيما يسع فيه الاعتذار، ولا يسقطهم من قاموس الإخاء بسبب خطأ أو هفوة.

أما الإنسان المتشائم فلا يعجبه أحد من الناس، فهو

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) أخرج القصة الإمام أحمد في الزهد (٢١٧٢).

ساخط على رئيسه في العمل، وشاك من جاره في السكن، وهو غير راضٍ عن إمام مسجدهم، وضائق صدره من مؤذن الحي، وهو عاتب على زوجته وأولاده، وهكذا لا يسلم له الدهر صاحب.

وحين تنزل الشدائد بأهوالها، تجد المتشائم ضعيف اليقين، سيء الظن بربه، ففي غزوة الخندق، تجمع الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ وحوصر المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، فقال أصحاب النفوس المتشائمة الشاكية: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب: ١٢]، فكان قائلهم يقول: «محمدٌ يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب يقضي حاجته»[(١)].

أما ذوو النفوس المستبشرة المتفائلة الزاكية، فقال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون في الشدائد متفائلاً مستشرفاً لوعد الله، ولا ينبغي له أن يقتله الحزن إذا فعل ما يقدر عليه، فهذه وصية الله ﷻ لنبيه ﷺ إذ قال له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [النمل: ٧٠].

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٥٢٢).

والخلاصة أن من أراد أن يستمتع في حياته، فليكن إيجابيّاً متفائلاً معطاءً، يعمل بحسب استطاعته، ولا يتسخط من شيء ليس من جهده وطاقته؛ بل يتعايش مع أحواله التي لا يقدر على تغييرها، ويستشرف الجانب المشرق فيها، ولا ييأسْ من روحِ الله، ولا يقنط من رحمة الله، ولا يفتر طالباً عون الله، وليبشرْ بأنه إذا كان كذلك، فإن القادم في حياته وآخرته سيكون أجمل وأفضل وأسعد بإذن الله.